من كتاب الله

بقلم الشهيد : سيد قطب

« ومِن الناسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كِتابٍ مُنيرٍ ، ثَانِيَ عِطفِهِ لِيُضِلَّ عن سَبيلِ اللهِ . لَهُ فِي الدُّنيا خِزيٌ ، ونُذيقُه يومَ القيامةِ عذابَ الحَريق . ذلكَ بما قدَّمَتْ يداكَ ، وأنَّ اللهَ ليسَ بظلَّامٍ للعَبيدِ » ..

والجدال في الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستنكرا. فكيف إذا كان جدالا بغير علم ، لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على معرفة ، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل ، ويوضح الحق ، ويهدى إلى اليقين .

والتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس . صورة فيها الكبر المتعجرف : « ثانيَ عِطْفِه » مائلا مزورا بجنبه . فهو لا يستند إلى حق فيعوض عن هذا بالعجرفة والكبر . « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ « فلا يكتفي بأن يضل ، إنما يحمل غيره على الضلال .

هذا الكبر الضال المضل لا بد أن يُقمع ، ولا بد أن يحطم : « لهُ فِي الدُّنيا خِزيٌ » فالخزى هو المقابل للكبر . والله لا يدع المتكبرين المتعجرفين المضلين حتى يحطم تلك الكبرياء الزائفة وينكسها ولو بعد حين . إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزى أعظم ، والتحقير أوقع . أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع : « ونُذِيقُهُ يومَ القِيامَةِ عذابَ الحَرِيق » .

وفي لحظة ينقلب ذلك الوعيد المنظور إلى واقع مشهود ، بلفتة صغيرة في السياق ، من الحكاية إلى الخطاب :

« ذلكَ بما قدَّمتْ يداكَ ، وأنَّ اللهَ ليسَ بِظلَّامٍ لِلْعَبِيد » ..

وكأنما هو اللحظة يلقى التقريع والتبكيت ، مع العذاب والحريق .

ويمضي السياق إلى نموذج آخر من الناس ــ إن كان يواجه الدعوة يومذاك فهو نموذج مكرور في كل جيل ــ ذلك الذي يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة ، ويظنها صفقة في سوق التجارة :

« ومنَ الناسِ منْ يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنْ أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به ، وإنْ أصابَتْهُ فتنةٌ انقلبَ على وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ . ذلكَ هُو الخُسرانُ المبينُ . يَدْعو منْ دونِ اللهِ ما لا يَضرُّه وما لا ينفَعُهُ . ذلكَ هوَ الضَّلالُ البعيدُ . يَدْعو لَمَنْ ضَرُّه أقربُ منْ نفعهِ . لبئسَ المَوْلى ولَبِئسَ العَشِير » ..

إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التى لا تتزعزع ، وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول .

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن . ومن ثم يجب أن يستوى عليها ، متمكنا منها ، واثقا بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهي في ذاتها جزاء . ذلك أنها الحمى الذى يلجأ إليه ، والسند الذي يستند عليه . أجل هي في ذاتها جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى . ومن ثم يهبه الله العقيدة ليأوى إليها ، ويطمئن بها . هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله ، تتجاذبهم الرياح ، ونتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق . بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادىء البال ، موصول بالله مطمئن بهذا الاتصال .

أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة : « فإنْ أصابَه خيرٌ اطْمأنَّ به » وقال : إن الإيمان خير . فها هو ذا يجلب النفع ، ويدر الضرع ، وينمي الزرع ، ويربح التجارة ، ويكفل الرواج « وإنْ أصابَتْهُ فتنةٌ انقلبَ علىَ وجْهِهِ خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ » .. خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى الله فيه . وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسرا له .

والتعبير القرآني يصوره في عبادته لله «عَلَى حَرْفٍ » غير متمكن من العقيدة ، ولا مثبت في العبادة . يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة

الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة ، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب !

إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة ، فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقى . والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها ، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى ، فهي لا تطلب جزاءها خارجا عن ذاتها .

والمؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته إليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به . فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنة . استحقاقا على الإيمان أو العبادة !

والمؤمن لا يجرب إلهه . فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء . وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار ، إنما هي إسلام المخلوق للخالق ، صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس .

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التى لا شبهة فيها ولا ريب : « ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبِينُ » .. يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى . إلى جوار خسارة المال أو الولد ، أو الصحة ، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن الله بها عباده ، ويبتلي بها ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم أنفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره .. ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان . فيا له من خسران !

وإلى أين يتجه هذا الذي يعبد الله على حرف ؟ إلى أين يتجه بعيدا عن الله ؟ إنه « يَدْعو مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّه وما لا يَنْفَعُه » .. يدعو صنما أو وثنا على طريقة الجاهلية الأولى . ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى الله وحده ، والسير على صراطه ونهجه .. فما هذا كله ؟ إنه الضلال عن المتّجه الوحيد الذي يُجدى فيه الدعاء : « ذلكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ » المغرق في البعد عن الهدى والاهتداء .. « يَدْعو لَمَنْ ضَرُّه أقرَبُ منْ نَفْعِه » .. من وثن أو شيطان ، أو سند من بني الإنسان .. وهذا كله لا يملك ضراً ولا نفعاً وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر وضره أقرب من نفعه . ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، وإثقاله بالوهم وإثقاله بالذل . وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران

(لَبِئسَ المَوْلى) ذلك الضعيف لا سلطان له في ضر أو نفع (وَلَبِئسَ العَشيرُ) ذلك الذي ينشأ عنه الخسران . يستوى في ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان ، والمولى والعشير من بنى الإنسان ، ممن يتخذهم الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان !

والله يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله في الفتنة والابتلاء :

« إنَّ اللهَ يُدخِلُ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ جنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِها الأنهارُ . إنَّ اللهَ يفعلُ ما يُريدُ » .

فمن مسه الضر في فتنة من الفتن ، وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة الله وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء ..

فأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة ، ويقنط من عون الله له في المحنة حين تشتد المحنة . فدونه فليفعل بنفسه ما يشاء ، وليذهب بنفسه كل مذهب ، فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء .

(في ظلال القرآن)

يجوز للنساء والضعفة
أن يرموا جمرة العقبة قبل الفجر

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « أرسَلَ النبي ﷺ بأم سَلَمة لَيلَة النَّحر ، فَرمت الجَمرة قبل الفجر ، ثم مَضَت فأفاضت . فكان ذلك اليومُ اليومَ الذي يكون رسولُ الله ﷺ ــ تعنى : عندها » . أخرجه أبو داود .